أم القرى: تعزيز المركزية الإسلامية

ابتهاج يونس

تحتلُّ مكَّة مكانة سامية في مخيلة المسلمين عموما؛ فهي بالنسبة لهم أرض الحلم والرؤى النورانية، أرض لابد أن يطأها كل مسلم كهدف يتم به أركان شريعته، هي الخلاص والكمال، الصفاء والتطهير بأركانها الشاقة. ولو جئنا للبعد الاجتماعي نرى أنها دار تعارف ووحدة لكل المسلمين باختلاف ألوانهم وأجناسهم -في مناسبة يشترك الجميع فيها فرحة الوصول وعناء التكريس، هي النقطة المرجعية التي يجتمع الجميع فيها، يتبادلون فيها مشاعرهم على أقل تقدير ويتشاركون أفكارهم وهمومهم.

ونظرا لهذا الارتباط الوجداني والفكري للمسلمين بمكة، فقد نظَر الباحثون في هذه العلاقة، ومنهم الباحث وجيه كوثراني الذي يرى أن مكة نقطة تقاطع المسلمين مهما اختلفوا، وأنها تتماشى مع حركة التاريخ في مستوياتها الثلاثة. وأول هذه المستويات: ديمومتها الجغرافية وثبات قدسيتها؛ حيث جمعت الأزمان (الماضي والحاضر والمستقبل) في مكان واحد؛ فطاب للمسلمين سكناها والقرب منها، واستثمر البعض منهم الاجتماع الغفير فيها من كافة أصقاع العالم للتجارة فيها. ويتمثل المستوى الثاني في التنوع الثقافي والاثني الذي تحويه مكة من حيث زوارها، والذي شكل الأنماط الثقافية والحضارية للمسلمين نتيجة تفاعل فوارقهم الفردية والاجتماعية مع الدين، وهنا نشير لمصطلح «الإسلامية» الذي اصطلحه الكواكبي ليحوي ذلك. والمستوى الثالث يشمل التغيرات السياسية وتعاقب الأنظمة والسلطات بأشكالها وأثرها على مكة.

يتناول الباحث كوثراني في أطروحته موضوع «تأثير مكة في كتابات مفكري النهضة» باتخاذ المفكر عبدالرحمن الكواكبي نموذجا، وهو أحد المشتغلين على فكر النهضة الإسلامية في القرن التاسع عشر، وأحد منظري القومية العربية المناهضة للفتور الإسلامي نتيجة الاستعمار الغربي، فقد كان مهتما بمشروع الوحدة الإسلامية بجمع العالم الإسلامي كافة، وكان يحلم بيوم تجتمع فيها أيادي المسلمين ليبنوا واقعهم ويصنعوا سيادتهم بما ينافس العالم بأسره. لقد أسرته مكة، ومنها استلهم كتابه «أم القرى»، وهي عبارة عن حوارات متجسدة في مؤتمر إسلامي متخيل يناقش قضايا النهضة الإسلامية بلسان علماء وباحثين مسلمين من مختلف بقاع العالم، بين مؤيد ومعارض، وقد حوى كل المشارب الثقافية التي يمكن أن يأتي منها المسلم، ويمكننا ملاحظة هذا التنوع في الشخصيات الآتية التي أوردها في كتابه: الفاضل الشامي، البليغ القدسي، العلامة المصري، المحدث اليمني، الحافظ البصري، العالم النجدي، المحقق المدني، الأستاذ المكي، الحكيم التونسي، المرشد الفاسي، السعيد الإنكليزي، المولى الرومي، الرياضي الكردي، المجتهد التبريزي، العارف التتاري، الخطيب القازاني، المدقق التركي، الفقيه الأفغاني، الصاحب الهندي، الشيخ السندي، الإمام الضني.

تدور نقاشات كتاب «أم القرى» حول معنى النهضة الإسلامية وطبيعة مسارها ومشكلاتها ومعوقاتها؛ فتكمن عناوينها في الآتي:

أولا: الإطار العام والمنهج ومقاربة الموضوع:

وفيه يتحدث الأستاذ المكي عن تعيين الإشكالية المنهجية، وذلك بضرورة الوعي بأسباب التقهقر والحفر التاريخي والاجتماعي فيه يعري أسباب التخلف، ويقترح الإرادة والعقل حلا لتصحيح كل ذلك، ويشدد بأسف ضرورة اعتراف المسلم بتفوق الغرب لاتخاذه الأسباب والبعد عن المكابرة، وهذا باب مفتوح لمعرفة الآخر والمقارنة والارتباط بالتاريخ العالمي دون فصل، كذلك ينبه إلى الشلل الذي استشرى في قلب الجزيرة العربية لما له من أثر سلبي في تاريخ الأمة من الناحية السياسية خصوصا.

ومن هنا، يلوم علماء المؤتمر الساسة، ولكن يتنبهون لدورهم كعلماء ببلاد الاتحاد بدلا من العمل الانفرادي الذي لا يثمر؛ وذلك بتكوين جمعية منظمة للأمم الإسلامية، يمثلها علماء من كل دولة، ويكون مقرها مكة، وذلك لتدارس أمور الأمة في موسم الحج وتقديم توصيات شريطة عدم التدخل في إشكاليات السياسة، عدا فيما يتعلق بالاقتراحات الخاصة في سياسة التعليم.

ويأمل الكواكبي (الرئيس) بقوله: «من المأمول أن تكون الحكومات الإسلامية راضية بهذه الجمعية، حامية لها، ولو بعد حين؛ لأن وظيفتها الأساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهل، وترقى بها في معارج المعارف، مبتعدة عن صبغة سياسية»، وهنا ينبذ صور التحزب السياسي باسم الدين، ويصر على وجود قانونيين ولاسيما من عملوا في الجمعيات الغربية، للاستفادة من تجاربهم في مجال المجتمع المدني، لوضع الحدود المناسبة وإيجاد قنوات الوصول اليسيرة.

ثانيا: فرضيات في أسباب الفتور العام لدى المسلمين:

كان هذا الموضوع هو الشغل الأول في أذهان العلماء خلال اجتماعاتهم الأولى، فقد غلب فيها وصف وتحليل الحالة الإسلامية واقعا، فيرجع الفاضل الشامي أسباب الفتور لعقائد الجبر والزهد التي أدت بالمسلمين باللامبالاة بحالهم، والتخدر بالآخرة بالقناعة باليسير والهوان في الدنيا وكونه لابد أن يعيش ميتا قبل موته. فهذا الاكتئاب والانسحاب أثر في مسؤوليته ودوره الحضاري في الأمة. وفي الجانب الآخر، يتدخل البليغ القدسي مؤصلا للزهد من الناحية السيكولوجية أنها كانت موجودة في غالب ديانات العالم لتخفيف شره الإنسان للملذات الحسية ولكن ينبذ فيها أنها تسلية للعاجزين ومبرر للبائسين، وفي النهاية يؤكد أن الزهد لشح النفس بقدر ما أتى بقصد للإيثار للجماعة بالعطاء.

ويرجع القدسي السبب الحقيقي للفتور بسبب الدكتاتورية المطلقة وغياب الحريات وغرق الحكام بالصراعات الداخلية، وتحول الحكومات من ديموقراطية نيابية وقائمة على الشورى كما الخلافة الراشدة إلى الملكية بعدم إشراك الجماعة في القرار. يجيب الحكيم التونسي بأن هناك دولا ملكية وأوتوقراطية في العالم الغربي لكن لم يصبها أي جمود أو فتور - هذا إن لم يكن العكس. فيرد المولى الرومي أن الأمراء من الأمة ذاتها، فكما تكونون يولى عليكم، فأي شعب لا يملك القوة في طلب حقه والدفاع عن نفسه يستغله طغاته.

ويرجع البعض الفتور لانتشار الطرق الصوفية التي استغل البعض ظاهرها الباطني البراق، وروحانيتها السامية لتمرير السحر والشعوذة والتدليس والكذب على عقول الجهلة بالكرامات والتبرك بالصالحين، وتحذر الجمعية من دور وعاظ السلاطين أو «المعممين الجهلة» الذين يصطفيهم المجتمع بسبب كارزميتهم أو نفوذهم التقليدي أو الاجتماعي؛ مما يؤدي بهم إلى تقديسهم وتغييب عقلهم، وتأجير عقولهم بوصاياتهم، حيث يتكئ وعاظ السلاطين على السلطة لفرض الزهد وتبرير الفساد السياسي وكبح التقدم الحضاري باسم الدين والحدود، فهم يجتمعون في مصلحة واحدة، فيقول المولى الرومي: «هؤلاء المتعممون في البلاد العثمانية كانوا اتخذوا لأنفسهم قانونا سموه طريق العلماء وجعلوا فيه الأصول، أي أن يصير العلم منحة رسمية تعطى للجهال - حتى للأميين وللأطفال»، وقد شدد على ما يسميه «دسائس المعممين» فيقول: «أنهم ينفثون في صدور الأمراء لزوم الاستمرار في الاستقلال عن الرأي وإن كان مضرا، ومعاداة الشورى وإن كان سنة، والمحافظة على الحالة الجارية وإن كانت سيئة ويلقون عليهم بأن مشاركة الأمة في تدبير شؤونها وحرية الانتقاد لها يخل بنفوذ الأمراء، ويخالف السياسة الشرعية، ويلقنونهم الحجج الواهية»، وبحد قوله هم يساهمون في حد الإصلاح السياسي ودعم الأمراء بآرائهم الدينية للقول للمجتمع الدولي بأن الشعب الإسلامي غير مهيأ للتجربة الديمقراطية والترقيات المدنية وأنهم عكس النظام، وذلك لتمرير استبدادهم!!!

ويرى البعض أن سبب الفتور يرجع لإهمال العلوم الرياضية والطبيعية، والتركيز على علوم الدين واللغة، وهذا ما جعلهم في فجوة مع العالم حضاريا، فلم يعد العالم يأبه بالإعجاز اللغوي وفنونه، ولا يأبه حتى بالأديان، بل أصبح العلم والتقنية ومقدار النفع هي أساس السيادة. من الجانب الآخر، صعَد المعممون المجهلون الصراع بين العلم والدين بجعلهما نقيضين، وتكفير المتعلمين والمتكلمين بالعلوم. ويتحسر السعيد الإنجليزي لنسيان المسلمين حكمة تشريع الجماعة وفرضية الاجتماع المدني للتداعي والتناصح والتفاوض، والتي تتجسد في الساحات الثقافية والأندية والمسارح والتظاهرات والمنتديات.

هذا غيض من فيض عن الأسباب الأخرى المتمثلة في عدم تطابق الأخلاق بين الرعية والرعاة، والغفلة في ترتيب شؤون الحياة وتوزيع الأدوار والأوقات، والعزوف عن الإتقان في العمل والثقافة الريعية، وترك تعليم النساء...إلخ.

ثالثا: إعادة النظر بالرؤى والمواقف واقتراح التوجهات في صيغ العمل في مجالات الدين والسياسة والعلم:

يشدد المجتهد التبريزي على تجاوز التعصب المذهبي، وعدم جعله ذريعة للتباغض والفرقة، فقد جوّز بالأخذ بآراء المذاهب الأخرى دون حساسية أو تكفير، ويقول الخطيب القازاني في ذلك بضرورة ترك الأمور الخلافية بين الفقهاء المتأخرين لأنها من نتاج التشدد والتشويش.

وتطمح الجمعية لتقديم برنامج سياسي أو خطة عمل للإصلاح الديني والأخلاقي والتعليمي وذلك بالتواصل مع الخبرة السياسية، مراعاة عدم الخلط بين الدور العلمي للجمعية والدور السياسي بوضع حدود واضحة، وتحديد أخلاقيات كل منهما. ويحذر الكواكبي بين الدمج بين العلم والسياسة والدين لما لذلك من ضرر واضح في كل منهما، أي لابد من فصلهما لتحقيق التخصصية والتكامل.

تعقيب:

يغلب على الباحث ملامح القومية العربية في أطروحته، وهو فكر ينص على وحدة العالم العربي الإسلامي ثقافيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا؛ لتحقيق السيادة العربية، أي هي اتجاه صناعة الحياة المشتركة بمصالح واحدة، وهنا يبرز سيكولوجية المسلم في تلك المدة حيث ساد الخوف والضغط والقلق في قلبه، فاحتاج أن يكوّن له جماعة لتحقيق «الانتماء» بالقرب العاطفي والعملي عن طريق الإنجاز وتكوين النفوذ بالتحفيز الجماعي؛ ليحس بالأمان.

ولو جئنا للوجه الآخر لأم القرى، تعزز أيديولوجية القومية العربية الإسلامية فكرة مركزية مكة المكرمة، وهذا يؤصل نزعة الأحادية وصناعة المرجعية الواحدة بطريقة غير مباشرة كأثر سلبي لو طبق اليوم، وهذا ما يتعارض في عصرنا الحديث مع التكنوقراط والتخصصية ولامركزية العالم، وكأن نتائج هذه المركزية ليس إلا صناعة عصبية ابن خلدون ومعممين جدد يستبدون باسم «الإجماع» و«الوحدة».

فكر النهضة الإسلامية يتناسب مع مدة الاستعمار الغربي للدول الإسلامية، لكن اليوم لا ينتج لنا سوى خطاب الإسلام السياسي، والذي لم نر منه اليوم سوى التشدد والدمار، ولاسيما أن مجال الدين قابل للتأويل دون تحديد، وهو مثار خلاف، فعلى أي إسلام سوف نرسو؟

كذلك لابد من الاعتراف بأن زمن الدولة الإسلامية كامتداد جغرافي انتهى، وأصبح الدين اليوم مسألة شخصية. لابد أن نتخلى عن كبريائنا ونعترف بأن النظام العالمي تجاوز القومية الإسلامية والانتماءات -بتشريعات أكثر رحابة وأكثر تسامحا من التحزب الديني. أصبح مفهوم السيادة والحضارة يشمل الجانب العلمي والمادي والمصلحي- بحيث ينظم حياة كل الأفراد باختلاف أديانهم وألوانهم وأيديولوجياتهم. لم نعد بحاجة إلى «إسلامية» بقدر حاجتنا إلى حقوق مدنية وحريات وتقدم، فيا ترى ماذا تقدم مشاريع الإسلام السياسي اليوم لكل ذلك أكثر من شعارات؟ وهل تستطيع مشاريع النهضة أن تنافس المشروعات العالمية وتسد احتياجات الفقر والجهل والمرض في العالم؟

ibtehaj.i9@gmail.com